

1/مدخل: الرواية: مفهومها، خصائصها، عناصرها، أصولها، وأنواعها...

هي عمل قصصي طويل، يروي أحداثاً تقع لشخصيات حقيقية أو خيالية، وهي من أحدث الأنماط الأدبية السائدة.

أ- التعريف اللغوي:

من روى، يروي، رَيًّا ورِيًّا ورواية، فهو راوٍ، والجمع رواة، ونقول روى على البعير: استسقى، وروى الحاضرين: استسقى لهم الماء، وروت الأمطار الأرض: سقتها. ونقول أيضاً: روى الأخبار نقلها، وذكرها، كما نقول: روى الشعر: استظهره ونقله، وروى الحديث النبوي: إذا ما سرده ونقله كما هو عن سنده ورواته.

ومن هنا فكلمة " رواية " مشتقة من كلمة " الريّ " والتي تدل على نقل الماء من موضع إلى آخر لريّ الأرض وإرواء الظمآن وإزالة عطشه؛ ثم تغير معناها لتدل على نقل الخبر من شخص إلى آخر، وهذا ما يفسر ارتباطها بعلم الحديث النبوي الشريف، بعدها توسع الأدب في طرح مدلولها فأصبح يطلقها على القصة الطويلة.

ب- التعريف الاصطلاحي:

هي سرد نثري طويل يصف شخصيات خيالية، وأحداثاً على شكل قصة تتسلسل حيثياتها، يصبو من ورائها مؤلفها، إلى ترسيخ القيم الانسانية والحضارية في المجتمع، و"هو جنس أدبي نثري* يصور حياة عدد غير محدد من الشخصيات، تتفاعل كلها في إطار عالم متخيل وممكن الحدوث، والزمن في الرواية لا حدود له، وهو ما يجعل حجم الرواية، يتسع ليكون أطول الأجناس الأدبية، كما لا توجد في الرواية قيود حول نوع الموضوعات التي تعالجها، أو عددها، فكانت بذلك أخصب الأجناس الأدبية"

تتميز الرواية بحرية في الحركة والتعبير، مقارنة بالأجناس الأدبية الأخرى، وهذا ما يجعل كل رواية مختلفة عن الأخرى بما تعرضه من أحداث ووقائع، وتعزى هذه الحرية إلى اقتراحها بعنصر الخيال الذي يوسع أفق التفكير، بما يرسمه من عوالم ولوحات لا نهاية لها، إذ يبنى الروائي عمله الأدبي، مستندا على حدث واقعي، ويمزجه بأحداث من وحي الخيال، لا تمت للحقيقة بصلة، وهذا ما يجعل من الرواية، نصفها متشبهت بأرض الواقع ونصفها الآخر معلق بالغيمة لا يفارقه؛ وهدف المؤلف هو امتناع القارئ بالدرجة الأولى، والتأثير فيه في مرتبة ثانية، معتمدا على أسلوب شيق منمق، غني بشتى ألوان المجاز والصور البيانية، من تشبيه، وكناية واستعارة، بغية نقل الرسالة التي يريد إبلاغها، من خلال الشحنات الثقافية، الفكرية، الاجتماعية، والانسانية، التي تحملها الكلمات والعبارات والجمل، وهذا ما يمثل في نفس الوقت، عقبة في طريق المترجم، الذي لا يجد غالبا سبيلا للتوفيق بين مضمون النص وقالبه.

والرواية زيادة على كونها جنسا أدبيا خياليا، فهي شكل من أشكال الثقافة ومرآة عاكسة للمجتمع بواقعه ومعاشه، ينقل عبرها المبدع عديد التناقضات التي يحيا فيها بنو جلدته، بين تخطيط في واقع مرفوض وفي ظل حقيقة غير مرغوب فيها، وواقع منشود، مأمول، ومثالي يصعب بلوغه لأنه ببساطة ضرب من الخيال.

ت- خصائص الرواية:

للرواية بوصفها شكلا أدبيا، أربع خصائص تميزها عن باقي الأنماط الأدبية:

- شكل أدبي سردي يحكيه راو.*
- أطول من القصة القصيرة، وتغطي فترة زمنية أطول، وتضم شخصيات أكثر.
- تكتب بلغة نثرية، لأنه الأسلوب الأمثل لسرد الأحداث والوصف.

(*) بخلاف المسرحية التي تحكي أحداثها، الشخصيات الفاعلة فيها.

- تعتمد على الخيال، بالرغم من كونها تروي وقائع حقيقية، فتجد الرواة يعتمدون في إيراد أحداث وشخصيات لا تمت للحقيقة بصلة، وهنا تكمن قمة الابداع.

ث- عناصر بناء الرواية:

تبنى الرواية على عناصر تحدد شكلها ومضمونها، وترسم كافة معالمها من أهمها وأبرزها:

- **الشخصيات:** التي تدور حولها الأحداث، منها:
 - **البطل،** الذي يمثل الشخصية المحورية في العمل الأدبي، فهو مفتاح ولوج القصة، ونقطة نهايتها، وتدور كل الأحداث عنه، عن حياته، شخصيته، وأفعاله...
 - **الخصم:** ويشمل قوى الشر التي يناضلها البطل، والتي قد لا تتجسد في شخص بذاته يسعى لهزيمته، فقد يكون المراد هو الرغبة الجامحة في التغلب على سلوك خاطئ، بغية إصلاحه وتقويمه، ليكون التغيير في النفس لا في الغير.
 - **الشخصيات المساعدة:** وتسمى أيضا الشخصيات الثانوية، التي تكمل الرواية، فدورها لا يعد أساسيا، لكن من دونها لا وجود للقصة من الأساس.

ويمكن أن تكون الشخصية القصصية:

- ✓ **بسيطة:** ونسميها أيضا **مسطحة**، وهي التي تبقى ملازمة لحالة واحدة وصفات ثابتة في الرواية مهما تغيرت الظروف، فبدايتها، سيرها ونهايتها معروفة، وأفعالها محسوبة النتائج مسبقا، وهذا ما يجعلها لا تشد نظر القارئ إليها ولا تمتعه، وقد لا يجد رغبة حتى في متابعتها.
- ✓ **مركبة:** وتعرف أيضا **بالنامية**، وهذه الشخصية تتفاعل مع الظروف والأحداث، وتجلب انتباه القارئ إليها، فتجده يبدي رغبة شديدة في متابعتها، وتحري مواقفها، فيعجب بها أو يكرهها، وفي كلتا الحالتين، يحسب ذلك للمبدع لأنه يسجل في خانة نجاحاته، التي تحصى بقدرة الشخصية إلى تأدية الدور الذي تقلدته، على نحو يترك أثرا في القراء.

• **الحبكة:** وهي الأحداث وطريقة بنائها:

- تتمثل في سير الأحداث تجاه الحل، بدءا بالمقدمة التي تكون وصفا للمكان أو الزمان تمهيدا لسرد الأحداث، ثم العقدة التي تتوسط القصة وتشكل تأزم الأحداث والصراع بين الشخصيات ووصولها إلى الذروة، ثم الحل الذي يختم القصة ويرسم نقطة نهايتها، وهناك نوعان:
- **حبكة نمطية:** تسير وفقها الأحداث بالشكل المتعارف عليه، وفق تسلسل طبيعي انطلاقا من حدوث الأزمة، تصاعدها، ثم محاولة حلها.
 - **حبكة مركبة:** حيث تبدأ أحداث القصة بالنهاية، وتكون العقدة هي المستهل، ثم يتم استعراض الأحداث التي أدت إليها بغرض التوصل بالنتيجة إلى حل لها.

- **الموضوع:** هي القيمة التي تحملها الرواية ويدور حولها المضمون، وبعبارة أخرى، الرسالة التي يسعى الكاتب إلى نقلها للقارئ، والتي تتكشف شيئا فشيئا من خلال العقبات التي تواجهها الشخصيات.

• **الزمان والمكان:** وهو ما نطلق عليه اسم (الفضاء الروائي)

- **الزمان:** ويمكن أن يدل على الزمن العام، الذي تدور فيه الرواية كحقة زمنية معينة، أو الزمن الخاص والذي ندعوه زمن الرواية، حيث تعرض فيه القصة، فترة زمنية محددة كيوم واحد تدور فيه الأحداث، أو أكثر، ويمكن حتى أن يمتد بحيث يستغرق في بعض الروايات حياة الشخصية المحورية كلها.
- **المكان:** الفضاء الذي تدور فيه الأحداث حيث يتم وصفها وصفا حيا، لتمكين القارئ من التعايش معه من خلال إعادة رسمه في مخيلته بدقة، وتقفيه لأثر الشخصيات التي تتحرك ضمنه.

• **أسلوب السرد:** الذي يتشكل وفقه البناء القصصي، وتعدد الأساليب التعبيرية في الرواية نذكر من بينها:

- **السرد بضمير الغائب (هو) أو ضمير المتكلم (أنا):** ويكون على لسان راو، شاهد على الأحداث، وقد يكون هو نفسه من إحدى شخصيات الرواية.
- **الحوار:** من خلال جعل الشخصيات تتكلم فيما بينها، تسأل، تتساءل، تحجب، وتعبر عموما عما يجول في نفسها من مكنونات.

- **المناجاة:** تحضر المناجاة في السير الذاتية، والروايات ذات البعد النفسي، وتتجلى من خلال مناجاة الشخصية لنفسها أسباب أزمته.
- **الوصف:** تعتمد الرواية إلى حد كبير على الوصف تمهيدا للأحداث بتوضيح المعالم الزمنية والمكانية، وكذا ذكر مميزات الشخصيات التي تدور حولها الأحداث لتعطي للرواية فضاء أوسع، وبعدا.

ج- أصول الرواية:

تتمد أصول الرواية إلى الأدبين الإغريقي والروماني القديمين، حيث كانت الأنماط الأدبية السردية تكتب شعرا، وأشهرها الملحمة، التي تروي انجازات الأبطال الأسطوريين، على غرار الإلياذة والأوديسا لهوميروس؛ كما كتب الإغريق قصصا روائية طويلة خيالية تصف مغامرات العشاق، الرحلات والحب المثالي؛ وفي أوروبا، كانت الرواية نوعا أدبيا، يُقبل عليه الشباب من أجل الترفيه، تتلخص معظم موضوعاتها في قصص الفروسية الخيالية التي تتحدث عن الحب والمغامرة، هروبا من القيود التي كانت تفرضها الأسر الأوربية على أولادها، مانعة إياهم من كل ما من شأنه أن يزرع في عقولهم أفكارا، قد تؤدي بهم إلى الرذيلة، وكان ذلك نفسه، هو موقف الكنيسة، التي ترى في هذا الفن تدنيسا للقيم الانسانية، لأنه مرتبط باللهو والجحون، مقارنة بالأدب السامية والنبيلة مثل الشعر.

ويمكن أن نؤرخ لفن الرواية في الأدب الغربي مع نهاية القرن السادس عشر ميلادي، حيث تعد رواية **دونكيخوتي دي لامانتشا**، لسارفاتانتاس Cervantes أول ما عرف تاريخ هذا الأدب في هذا المجال، لكن يعتبر القرن التاسع عشر، القرن الذهبي الذي ازدهر فيه هذا الفن وذاع صيته، ببرز أسماء كبار الروائيين مثل بالزاك Balzac ستاندارد Stendhal ميريميه Mérimée ، زولا Zola ، فلوبيير Flaubert هيجو Hugo و موباسون Maupassant " فكان قرن الرواية بلا منازع، حظيت خلاله بإقبال القراء والنقاد جميعا، وصار النبوغ فيها مقفزا إلى المجد، وقد قوي الاهتمام بالواقع بالرواية خلال هذه الفترة"

أما العرب فلم يعرفوا الرواية بشكلها وكنيتها، مثل نظرائهم من الغرب، بالرغم من وجودها مضمونا لديهم بداية من العصر العباسي مع بخلاء الجاحظ، أو حتى كيلة ودمنة؛ لكن الرواية، في شكلها الأدبي المتطور، لم تظهر إلا مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، متجلية في بعض المحاولات الروائية، التي نتجت عن الاحتكاك بالأدب الغربي وثقافته، وقد كان للترجمة دور بارز في نشر وتكييف الروايات الغربية بما يتماشى وذوق القراء، ولعل سليم البستاني كان من أهم الكتاب الذين ألفوا في هذا النوع القصصي " ولم يكن أحد في ذلك العهد يأخذ على عاتقه مهمة وضع القصص والروايات "وكانت باكورة أعماله رواية الهيام في جنان الشام التي بدأ نشرها بمجلة الجنان في نوفمبر 1870، أما عن أول محاولة لنقل الرواية الغربية إلى العربية، فكانت على يد رفاعه الطهطاوي في ترجمته لرواية Fenelon لمغامرات تليماك les Aventures de Télémaque باسم: **مواقع الأفلاك في وقائع تليماك**.

ويجمع النقاد على أن أول رواية عربية ناضجة، حاملة للمقاييس المعروفة لدى الغربيين، جاءت على يد حسين هيكل في روايته زينب التي نشرت في 1914، وشاعت بموجبها الرواية العربية في أقطارنا قاطبة، مقتبسة ومترجمة، واتخذت مسارات متعددة بفعل تطور المجتمع العربي، حيث انتشرت الروايات الرومانسية على غرار دعاء الكروان لطلح حسين و عودة الروح لتوفيق الحكيم، وثلاثية القاهرة ممثلة في بين القصصين، قصر الشوق، والسكينة* لنجيب محفوظ، الذي يعد حقا الأب الروحي للرواية العربية، لأن أعماله، أضافت إلى أجواء الرواية، عوالم أرحب وأوسع، وأضفت عليها رؤية جديدة، وكانت حتى سببا في حصوله على جائزة نوبل في الأدب سنة 1988.

ح- أنواع الرواية:

تتعدد أنواع الرواية بتعدد المواضيع التي تناقشها ويمكن أن نميز في هذا الصدد بين:

- **الرواية العاطفية:** التي تغلب عليها قصص الحب والمثالية، وتقوم عقدة الرواية فيها على المغامرة العاطفية، وتتابع الأحداث فيها، يعبر عن القلق الوجداني الذي يحيط بأبطال الرواية لكي يتم الوصول إلى تبادل العلاقة المثالية.
- **الرواية البوليسية:** وتسمى أيضا رواية الجريمة، قوامها التشويق والإثارة، حيث تقدم الرواية ألغازا يسعى القارئ إلى حلها طوال رحلة قراءته للرواية.
- **الرواية التاريخية:** تستمد أحداثها وشخصياتها من التاريخ، فهي توثيق للصلة بالماضي، من خلال سرد حياة أبطال، شهدتهم العصور السابقة.

- **الرواية السياسية:** تناقش القضايا السياسية الموجودة على الساحة، بشكل مباشر أو رمزي، من خلال إظهار الصراع مع أنظمة الحكم الفاسدة.
 - **الرواية الوطنية:** وهي روايات التضحية من أجل الوطن والسعي وراء الحرية.
 - **الرواية الواقعية:** سرد قصص لأشخاص واقعيين وأحداث حقيقية، تهدف إلى تغيير الواقع بما تقدمه لخدمة المجتمع وإصلاحه بتدعيم القيم الإيجابية.
 - **الرواية الفلسفية:** تقدم آراء ومعارف فلسفية على لسان شخصيات الرواية، وتنقل كيفية تأثيرها على حياة الإنسان اليومية.
- كما أن هناك أنواع أخرى للروايات**ابتدعها المحدثون، تتقاسم كلها خصائص الرواية التقليدية، لكنها تختلف من حيث تناولها للأحداث والوقائع، وتركيزها على بعض القيم التي تسعى إلى إبرازها، لبلوغ هدف معين لدى القراء.
- ومن تلك الروايات:

2/ الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية: نشأتها وتطورها

تعتبر الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، من المواضيع التي لا جدال في أهميتها الفكرية، الاجتماعية والفنية. وقد لاقت اهتماما كبيرا، رغم أنها من المواضيع الشائكة في الكتابات الأدبية القديمة والحديثة، من حيث التشكيك في شرعيتها وانتمائها الوطني، وكذا مضامينها.

ويختلف الدارسون والنقاد بشأن تصنيف هذا النوع الروائي، كونه لا ينتمي إلى الرواية العربية إجمالا، لأنه غير مكتوب باللغة العربية، ولا ينتمي للأدب الفرنسي، بالرغم من اشتراكه معه في نفس اللغة، لأنه يسلط الضوء على عالم مختلف ثقافيا، ويروي قصصا أبطالها جزائريون، يفترض أنهم ناطقون بالعربية، وأحداثا تدور معظمها في أرجاء الجزائر بما رحبت، وعلى امتداد مساحتها سهولا وصحاري.

وحق النقذ الفرنسي لهذه الرواية مقسم إلى قسمين: **قسم** ينظر إلى أنها أدب وطني جزائري، يحاكي المأساة الوطنية، واللغة الفرنسية وسيلة فقط لعدم إتيان كتاب تلك الفترة، العربية الفصحى، بسبب سياسة الاستعمار، أما **القسم الثاني** فيرى بأنها رواية فرنسية، لأن هؤلاء الكتاب نتاج المدرسة الفرنسية.

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال أساسي يفرض نفسه بقوة: ما الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا النوع من الأدب؟ وما الدوافع التي جعلت مبدعي هذا النوع من الروايات يختارون من الفرنسية لغة لكتابتهم ومطيتهم للتواصل مع القارئ؟

ولعل من أهم أسباب ظهور هذا النوع من الكتابات، ظاهرة الاستعمار الفرنسي، ومحاولته غرس بذور لغته باستعمال شتى الوسائل، ولا سيما الترغيب والترهيب، طمس الهوية الوطنية، وتوطيد دعائم الاستيطان، بإنشاء مدارس مختلطة تضم أقليات جزائرية، وتعليم اللغة الفرنسية، لغة، ثقافة وحضارة، ومحاربة العربية بحظر استعمالها في التواصل الرسمي، وطردها تماما من خارطة البلد اللسانية، لبناء دعائم جزائر جديدة... جزائر فرنسية.

لقد مزق الاستعمار الفرنسي النسيج الاجتماعي الداخلي للمجتمع الجزائري من خلال سياسة الإلغاء الديني والطبقي والجنسي؛ كما اتبعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية طيلة ما يفوق المائة سنة قانون الأفيون والعصا كما سماها مولود معمري: ترغيب الأقليات وإغوائها وترهيب الأغلبية واستعبادها، وحاولت أن تزرع التفرقة بين أفراد الشعب فخلقت هوة بين مختلف الطبقات.

وكان موقف الطبقة المثقفة الفرنسية مخزيا حيث تراوح بين التجاهل التام، التزام الحيادية، أو تشجيع الوجود الاستعماري في هذه البلاد التي فتحت ابواب خيراتها أمام فرنسا، فبيكتور هيجو *Victor Hugo* صاحب رواية البؤساء، انشغل بقضايا محلية واكتفى بالتصريح بأن احتلال الجزائر وصمة عار لفرنسا، أما لامارتين *Lamartine* فقد أيد الاستعمار، في حين كان Balzac يأمل في أن تجلب هذه الأراضي خيرا كثيرا؛ ومن جهة أخرى

(*) **رواية المتشردين:** التي يكون فيها البطل شخصا يعاني اجتماعيا. **الرواية القوطية:** التي يغلب عليها طابع الغموض والرعب، وتدور أحداثها في القلاع، والممرات الضيقة، والأماكن المخيفة. **الرواية التعليمية:** ظهرت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ووضعت أساسا من أجل مناهج التدريس للصغار. **الرواية الرخيصة:** وهي قصص مثيرة، وعديمة القيمة الأدبية. **الرواية الوجدانية:** تثير وجدان القارئ وتعاطفه بتقديمها الموضوع بطريقة غير واقعية. **الرواية النفسية:** التي تخاطب النفس البشرية، فالأحاسيس الداخلية هي التي تؤثر وتحرك الأحداث الخارجية. **رواية السلوك:** تعيد خلق العالم الاجتماعي من حولنا من خلال نقل مشاهدات دقيقة ومفصلة عن العادات والقيم والأخلاق للمجتمع. **الرواية الرسائل:** تقدم في شكل سلسلة من الرسائل التي تكتب بواسطة شخص أو أكثر. **رواية السير الذاتية:** تركز على حياة فرد في فترة صغره، وسلوكه الاجتماعي والأخلاقي حتى بلوغه. **رواية الطبقات الاجتماعية:** ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، ترسم صورة الطبقات الاجتماعية العليا في أوروبا من قبل فرد أو أفراد ينتمون إلى هذه الطبقة.

صوّر ألفونس دوديه *Alphonse Daudet* من خلال كتاباته البؤس الجزائري، ورأى موباسون *Maupassant* في الجزائر كل شيء جميلا ما عدا الوجود الفرنسي.

وقد ذكر ألبير ميميه *Albert Memmi* الكاتب الفرنسي التونسي في عمله الذي يصف فيه صورة المُستعمر: " لقد انتزع ماضيه، وأوقف في مستقبله، تقاليده تحتضر، وضاع أمله في تكوين ثقافة جديدة، إنه لا يملك لغة، ولا علما ولا فنا، ولا وجودا وطنيا أو عالميا، لا حقوقا ولا واجبات، إنه لا يملك شيئا ولم يعد شيئا يذكر، ولا يأمل شيئا ".

في هذا الجو المليء بالصراعات والنزاعات القتالية حيناً وبلاستقرار والخمول أحيانا أخرى، وُلد الأدب الجزائري وكان ميلاده نتيجة عوامل كثيرة تجتمعت بحكم الصراع الداخلي والخارجي... صراع أفضى سياسيا إلى مظاهرات 8 ماي 1945، وفضح روح القتال الجزائرية التي لم تطمس، فأرخ لمرحلة جديدة استأنف فيها الصدام بين الجزائريين والفرنسيين.

كان هذا اليوم رمزا لنهاية الحرب لعالمية الثانية حيث تعلم الشعب الجزائري درسا من خلال تجربته في هذه الحرب: " تموت الشعوب لأجل أوطانها " لقد شكل الإبداع الأدبي وعيا جديدا للإنسان الجزائري.

إن الأدب الجزائري المكتوب بلغة فرنسية نما وتطور نتيجة ظروف ثقافية وسياسية، فالأقلام التي تحررت وتحركت بعد أحداث 8 ماي 1945 لم تعبر إلا عن الاستياء العام والغضب الشامل من الواقع الأسود، فولدت الرواية نتيجة حالة من الانفجار والاحتجاج، وصورة الجزائر كانت حاضرة كمرآة في الأدب المكتوب، وكل كاتب نقل اللوحة من جانب محدود وكان يكفي أن تجمع كل اللوحات لتكون الشكل الأخير من مأساة الجزائر. اتفقت الآراء النقدية في تحديد انتماء الكتاب الجزائريين انتماء جغرافيا بالدرجة الأولى، فكل كاتب مارس وظيفته على أرض الجزائر هو جزائري، دون الرجوع إلى لغته وانتمائه التاريخي، فرأى جون سيناك *Jean Sénac* " أن الكاتب الجزائري كل كاتب اختار أن ينتمي إلى الأمة الجزائرية " أما عايدة أديب بامية فقالت أن: " الأدب الجزائري هو كل عمل أدبي مؤلف سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية من قبل أي من سكان الجزائر الأصليين "

كانت بواكير الرواية الجزائرية، التي همشت واتهمت بعدم نضجها، على يد ثلة من المثقفين الجزائريين الذين كانوا من خريجي المدرسة الفرنسية، سواء أساتذة أو موظفين، أو من وجهاء في المجتمع، وكان هؤلاء من أنصار مبدأ الاندماج والمساواة بالفرنسيين، نذكر منهم ماري لويز عمروش *Marie Louise Amrouche* المدعوة طاموس عمروش التي تعتبر أول روائية جزائرية مع عملها *jacinthe noire* الياقوتة السوداء 1947، وكذا الصحفية جميلة دباش *Djamila Debbache* التي أسست مجلة *l'action* الشهرية وصاحبة رواية " ليلي الشابة الجزائرية " *Leila jeune fille d'Algérie* في 1947.

يؤرخ لأول قصة بقلم جزائري في 1891 بعنوان *انتقام الشيخ La vengeance du Cheikh* كتبها محمد بن رحال، وأول سلسلة قصصية، كانت من توقيع أحمد بوري نشرت في صحيفة الحق في 1912 تحت عنوان *مسلمون ومسيحيون Musulmans et chrétiens* أما أول رواية باللغة الفرنسية فكانت: *أحمد بن مصطفى القومي* من تأليف القايد بن شريف في 1920، وتبعتها عناوين أخرى*، ويرى رواد هذه الفترة بأن لفرنسا أفضل مادية ومعنوية عديدة على الشعب الجزائري، " وأن من حظ الجزائريين أن تكون الدولة الأكبر والأكثر حضارة هي المعلمة، فمعها تمكن الجزائري من أن يخطو خطوات عملاقة وكذلك فالغاية التي ينزع إليها هي الفرنسية أي منح روح فرنسية وتفكير غربي " وواضح أن هذا العدد المحدود من المحاولات الأدبية لا يمثل مصدر فخر** إذا ما قيس بطول فترة الاحتلال، وخصوصا أن فرنسا قد حضّرت إعلاميا، حدث احتفالها بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وباركت هذا النوع من الأعمال الإبداعية، لتظهر أمام الرأي العام العالمي أنها حملت فعلا رسالة حضارية إلى هذا البلد المتخلف.

ثم أتت فترة أخرى، عرفت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بموجها، تغيرا جذريا في تناول الحقائق، ولا سيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، والتفات الجزائريين إلى أنفسهم، وإلى موقعهم من العالم الخارجي، فطفت على السطح أسئلة عن الكينونة والهوية على سبيل: من هو هذا الجزائري؟ إن كان فرنسيا، فلم لا يعيش في نفس أوضاع الفرنسيين، ويحظى بامتيازاتهم؟ لم يأتي في المرتبة الأخيرة حتى بعد بهائم وحيوانات الأسياد؟ لم يعيش دوما في التأخر والبؤس، وفي الذل والهوان؟ وإن كان جزائريا، فما الداعي لوجود هؤلاء الفرنسيين معه؟ لم لا يكون سيد أفعاله وقراراته؟

تحدث مولود معمري عن تلك الفترة قائلا: " خلال الحرب العالمية الثانية، حدثت أشياء كثيرة شاركنا فيها نحن الجزائريين، فشعرنا على إثرها بتهميب وابتهاج، أن خروجنا من المأزق ممكن، فخرجنا من ذلك بالكتابة قبل أن نخرج منه في الواقع ".

" لم يكن من السهولة على هؤلاء الكتاب الجزائريين التخلي عن لغتهم (العربية والقبائلية) واللجوء إلى لغة المستعمر، فتخلي مجتمع من المجتمعات عن لغته يقارب حالة الانتحار والموت المعنوي " لكن الظروف التي كانوا يعيشونها فرضت عليهم ذلك، وهم استغلوها كما استطاعوا، فبينما كان المجاهدون يحاربون بأسلحتهم، كانوا هم يناضلون بأقلامهم بغية إيصال صوتهم إلى العالم الخارجي، وفي المخالفة الدولية؛ وشاءت الأقدار أنهم استعملوا لغة المستعمر وحاربوه بها، باعتبار أن اللغة قوة والكتابة رمزها.

وفي هذا الصدد قال مولود معمري: "إنني على ثقة أكيدة بأن المناضل يطلق النار على الآخرين، وفي الإمكان أن نطلق العبارات النارية بواسطة القلم، هذا هو حال الكاتب " كما ساهم هذا الأدب في فضح حقيقة التواجد الفرنسي في جزائر الأم، لنهب الخيرات وطمس الذات، فكتب الواقع بلغة الآخر، ونقل الحقيقة كما كان يعيشها السكان الأصليون دون مبالغة، فالروائيون "عايشوا بجوارحهم كشهود وفاعلين، الاستلاب الثقافي والحرب التحريرية والظروف القاهرة تحت الحكم الاستعماري، وتوجيه العمال إلى فرنسا والتمرد على سلطة الأولياء وغيرها من الحالات، فرسلتهم كانت تمرد وتهديد، تلخصه الصياغة التالية: لا بد أن تتغير الأمور ".

وكانت *الدار الكبيرة La grande maison* لمحمد ديب 1952 دليل على تغير نمط الكتابة الذي رجحت فيه الكفة، إلى تصوير حقيقة الجزائري في ظل وجود المستعمر الغاصب، حيث وصفت الفقر والجوع السائد نتيجة الاحتلال، وبذلك تجاوزت الرواية صالونات المثقفين ومناقشاتهم القومية عن العدالة والمساواة في ظل الحكم الاستعماري، ووهم التعايش السلمي، لتغوص إلى أعماق المجتمع الجزائري باهتمامها بمحوم البسطاء من الناس؛ وتوطدت هذه الفكرة مع ظهور روايتي *الحريق l'Incendie* 1954 و *النول Le métier à tisser* 1957 لنفس الكاتب، واللذان تعتبران امتدادا للدار الكبيرة، ومراة، لمعاناة الفئات الأخرى من الشعب، ونحن نقصد فئة الحرفيين، والفلاحين، إذ اختلفت الحرف والمهن، والوضع المزري واحد.

وتتالت الأعمال بأقلام مبدعي العصر أمثال كاتب ياسين، مولود معمري، آسيا جبار، مالك حداد، وقد تركت الثورة التحريرية، ظلا كبيرا على الرواية الجزائرية، إذ بقي نمط الكتابة واحدا في كل المحاولات الأدبية، فكلها كانت تتحدث عن الثورة التحريرية الكبرى³، إلى غاية صدور رواية *التطبيق la répudiation* 1969 لرشيد بوجردة، إذ ولدت بذلك مرحلة جديدة في الكتابة الروائية، مرحلة كان ينبغي أن تواكب الثورة الاشتراكية لتخليص الأمة من الجهل والتخلف الذي خلفه الاستعمار.

لقد انتقد مبدعو تلك الفترة، عبر كتاباتهم، الأوضاع الاجتماعية القاسية التي كان يعيشها الفرد، وتطرقوا لمشكلة الانتماء، والهوية الوطنية الجزائرية، نذكر من هذه الأعمال *المنفى والحيرة L'exil et le désarroi* 1976 لنبيل فارس، و *العبر La traversée* 1982 لمولود معمري. ومع مطلع التسعينات، وصعود المد الإسلامي ودخوله معترك السياسة، ظهر نوع آخر من الأعمال الروائية التي راحت تنتقده نقدا لاذعا، سمي هذا النوع بأدب الأزمة، أو الأدب الاستعجالي، أو رواية المحنة⁴، ومن أهم الأعمال التي صورت هذا الواقع روايتي *حزام الغولة La ceinture de l'ogresse* 1990 و *اللعة La malédiction* 1993 لرشيد ميموني.

وتلتها العشرية السوداء، التي برزت خلالها أعمال، جسدت تلك الفترة التي وقعت فيها الجزائر في مواجهة دموية تشابكت فيها خيوط الأزمة، وتحولت البلاد إلى مسرح دموي تتصارع فيه أحزاب مختلفة، اسلامية متعصبة، وعصرية متفتحة؛ وغير بعيد عن تلك الأحداث، كان الروائي يأخذ مادته من الواقع العسيب الذي كان يعيشه هو ومن حوله، فسجل شهادة للواقع بحرفية وحرفية، في قالب سردي زاج بين فنية الأدب وواقعية الأحداث، فعندما تتعقد الحياة، لا يجد الكاتب سوى أن يعبر عن واقعه، واضعا مخيلته على جنب، لتصبح المشاكل المطروحة في الرواية والتي تعاني منها الشخصيات، هي نفسها المشاكل التي يعاني منها الفرد في المجتمع.

ومن أبرز الروائيين الذي برزوا في تلك الفترة آسيا جبار، رشيد بوجردة، ومحمد مولسهول المعروف باسم ياسمين حاضرة، والذي وصل بإبداعه إلى العالمية، ولا سيما مع روايته الشهيرة *بم تحلم الذئاب A quoi rêvent les loups* التي تعد من أهم النماذج الروائية المعاصرة، التي تناولت قصة الوطن في زمن المحنة بنجاح، حيث حققت نسبة مقروئية واسعة في مختلف الأوساط وفي شتى أقطار العالم⁵.

(*) Citons à titre d'exemple : les enfants du nouveau monde de : Assia DJEBBAR (1962) et L'opium et le bâton de Mouloud MAMMERI (1965)

(**) وتتعت أيضا: " رواية العنف " " الرواية السوداء " " الرواية الاستعجالية "

(***) بفضل ترجمتها إلى عديد اللغات.